

أرواح لا تموت

د. حسام يوسف

الإهداء

إلى كل المكلمين الذين إكتوت قلوبهم بنار الفراق وجزعت نفوسهم بمرارة رحيل الأعزاء، وحملت عقولهم بقاء مستحيل.. إليهم جميعاً أهدي هذه القصة لعلها تكون عزاء لهم.. وسط أنواء لا تهدأ.. وخطوب لا ترحم ولا تعرف للمشاعر موضعاً، وأحداث جلل.. نسجت برحيل من جادوا بأنفاسهم في السماء.

المشهد الأول

مراتع اللهو ومدارج الصبا¹

اعتادت الفتاة الصغيرة أن تسير مع والدها الصياد كل صباح مع شروق الشمس ترافقه في رحلته اليومية إلى النهر القريب من دارهم.

كانا يقطعان الطريق من منزلهما المتواضع ذي الطابق الواحد الذي يقبع في بقعة هادئة من الغابة، خلال دقائق قليلة.. بينما الأشجار الوارفة² الظليلة³ التي تجاوزت أعمارها عشرات السنين، تعانق الطريق من الجانبين، وترسم أشجار الموز بأوراقها الكبيرة الياضعة، لوحة شديدة العبقرية تخلق العقول وتأسر الأفئدة.

كانت الفتاة نحيلة الجسد لكن متقدة الذهن والذكاء حاضرة البديهة، ومنذ أن كانت ابنة السنتين، تمكنت من التحدث بشكل سليم، واستطاعت تكوين الجمل القصيرة والنطق بعبارات لم تتمكن شقيقاتها

(1) الفكرة مستوحاة من فيلم صامت حائز على جائزة الأوسكار

2 شديدة الخضرة

3 كثيرة الظل

الكبريات من تركيبها على النحو الذي أجادته هذه الطفلة، والتي يقع ترتيبها الأخيرة بين أخوتها الأربعة.

ذات صباح أراد الصياد اصطحاب ابنته الأثيرة⁴ إلى قلبه، لكن كان للأم في ذلك اليوم رأي آخر، لقد رفضت بشدة أن تذهب الفتاة معه فالبرد كان شديداً، والمطر أحال الأرض إلى برك وأوحال، والسماء تلبدت بالغيوم، والبرق والرعد يتعاقبان في مشهد يثير الخوف وكأن السماء تتوعد الأرض بيوم لا مثيل له من أيام الشتاء المشهودة، لكن نحيب الأخيرة وعويلها له تأثير السحر يحطم إرادة الأم ويذيب رفضها، كما تذيب النار الحديد.

كانت الفتاة تقابل دائماً رفض الأم بأن تملأ أرجاء المنزل الضيق صراخاً، وتغرق وجنتيها بالدموع الحارة، حتى تنتفخ أوداجها⁵ من البكاء.. يتحول ذلك كله إلى الرضا، إذا وافقت الأم على ذهابها مع أبيها، وفي لمح البصر تنفرج أساريرها⁶ ويظهر البشر والفرح على ملامحها، وتتطلق لتلثم بثغرها⁷ جبين أمها وخديها.

(4) المفضلة عند أبيها

(5) عروق العنق التي تنتفخ عند الغضب

(6) خطوط الجبهة والوجه

(7) الفم

كان ذلك يحدث دوماً بينما الأب يرقب في صمت ولا ينبس ببنت شفة ولا يعلق ولكن كان يمد شفتيه حينما ترفض الأم خروجها معه.. ولا يزد رد فعله عن ابتسامة عريضة حينما توافق زوجته بعد ذلك.

في الطريق أغلقت الطفلة قبضة يدها الصغيرة على راحة يد أبيها الكبيرة في سعادة غامرة وسرور بالغ وهي إلى جواره تلهو وتلعب وتركل بقدمها الدقيقة الحصى الصغيرة في الطريق.. وكالعادة تركها على ضفة النهر ثم هبط عدة خطوات نحو الشاطئ الزلج⁸، وأمسك بالحبل المتدلى من قاربه المتهالك استعداداً لأن يمضي.. والتفت إلى ابنته ودار برأسه نحوها فقد كانت ترقبه من بعيد فوق ربوة عالية ملاصقة لشاطئ النهر المترامي الأطراف، والذي كانت تظن آنذاك أنه أكبر أنهار الدنيا.

وإذا بالأب يعود إليها مهرولاً على غير العادة ليحتضنها بحرارة وحنان فاخترت الفتاة الصغيرة في حضنه الكبير وراح يداعبها ويرفعها بذراعيه إلى أعلى في الهواء، وصوت ضحكاتها يعبئ المكان من حولهما، ويرسم البسمة على وجه الأفق⁹، وضمها إلى صدره طويلاً ولثمها من خديها وجبينها.. وطوقت الفتاة ذراعيها حول رقبة أبيها، وشبكت أصابع يديها بقوة وإصرار حتى لا يتركها... وأفلتها الأب

(8) الأملس

(9) السماء

بصعوبة.. ثم مضى بهدوء مشوب بقلق وحيرة، فقد كان يتركها عدة ساعات وحدها ثم يعود إليها مرة أخرى، ويمضيا سوياً إلى دارهما.

كانت هذه المداعبة مع أبيها تسعدها سعادة لا شطآن لها وتدخل السرور والحبور¹⁰ إلى قلبها.

وقفز الرجل في قاربه الذي أحالته الأيام إلى كومة متهاكة من الأخشاب الكالحة¹¹ التي انطفأ بريقها، وذهب لونها وتحولت إلى اللون الداكن.

كان من المستحيل على أي شخص أن يخمن لون القارب حينما كان جديداً قبل 10 سنوات، فالأخشاب المصنوع منها برغم قوتها لم تصمد طويلاً أمام حرارة الشمس وزخات المطر وتقلبات الطقس¹².. ولضيق ذات اليد لم يتمكن الرجل من شراء قارب جديد أو حتى إصلاحه وتجديده أو التخلص منه واستخدام أخشابه للتدفئة في ليالي الشتاء

(10) البهجة

(11) الباهتة

(12) ظروف الطقس شديدة التقلب

القارصة¹³ على أحسن تقدير.. فإذا فعل ذلك من المستحيل أن يتمكن من شراء غيره.

وعاد الصياد بالذاكرة قبل سنوات حينما تزوج ولم يكن يملك شيئاً من الدنيا سوى قلب امرأة تحبه إنها زوجته المخلصة الوفية، التي كانت دوماً توّازره في الحياة وتعينه على نوائبها وتقلباتها.. فأوحت إليه من طرف خفي بضرورة شراء قارب ليستقل بحياته بعيداً عن العمل كأجير لدى أصحاب قوارب الصيد الكبرى في الميناء الذي يقع على مقربة 20 كيلومترا من دارهما.. وبغنت شديد وجهد بالغ تمكنت من جمع قيمة القارب بعد أن باعت حليها القليل، وجزءاً من أثاث منزلها المتواضع.

هكذا هن النساء منهن المشيدات التي تهوي بناء الصروح، وأخرى عيونها متسعة، وصدرها ضيق على ما في يد غيرها، فإذا اتسعت العين ضاق الصدر.. لكن امرأته كانت قانعة به وتشعر معه أنه هو الدنيا وهو المال أيضاً ورصيدها في الحياة.

كان لسان حالها يترجم كلمات ابن الفارض¹⁴ الذي كان يصف رجلاً متيماً¹⁵ بحب زوجته فيقول:

(13) شديدة البرودة

(14) ابن الفارض، هو أبو حفص شرف الدين عمر بن علي بن مرشد الحموي، أحد أشهر الشعراء المتصوفين.

نسيم الوصل هب على الندامى

فأسكرهم وماشربوا مدامى
ومالت منهم الأعناق ميلا

لأن قلوبهم ملئت غراما
إذا ما عاينوا الساقى تجلى

وأيقظ في الدجى من كان ناما
وناداهم عبادي لاتناموا

ينال الوصل من هجر المناما
ينال الوصل من سهر الليالي

على الأقدام واستحلى القياما

فما مقصودهم جنات عدن

ولا الحور الحسان ولا الخياما
سوى نظر الجليل وذا مناهم

وهذا مقصد القوم الكراما

فإذا أبطأ رزق زوجها الصياد لم تتأفف أو تغضب وإذا زاد عن حاجتهم ادخرته بحكمة لئلا يأتي يوم لا يجدون ما يقتاتون به .

في كثير الأوقات كانت تطهو بعض الثمار التي تلتقطها من الغابة المجاورة وتعد طبقاً شهياً لزوجها وبناتها وينامون جميعاً ليلة هنيئة وقد امتلأت معدتهم، وملاً مزاحهم وضحكاتهم أرجاء المنزل.. ثم يستلقون متراصين جنباً إلى جنب وأنفاسهم التي تشهق وتزفر في رضا تزيح البرد القارص وتطل على المكان سحائب الدفء ليغطوا في نوم هانئ، قريري العين.

وخلع الصياد الشاب معطفه الصوفي الثقيل ووضعه في بطن القارب الذي لا يتسع سوى لشخص بمفرده، واعتدل في جلسته داخله والتقط المجدفين الكبيرين بمهارة وخفة، ورمق ابنته نظرة حانية وأخذ يمخر¹⁶ عباب المياه ويشق سكون النهر المتوثب¹⁷ ويبتعد شيئاً فشيئاً عن الشاطئ متجهاً نحو الأعماق البعيدة حيث تتجمع الأسماك ويرسم بالمجدفين لوحة من الأمواج، ودوائر على الماء ما تلبث أن تزول سريعاً.

(16) يشق الماء مندفعاً

(17) المستعد للغدر

في ذلك اليوم بدأ رذاذ المطر البارد يداعب الفتاة ويسقط على عينيها وأنفها.. وهطل¹⁸ لدقائق ثم توقف بينما الفتاة تلعب على الشاطئ وتلهو في سعادة غامرة تنتظر رجوع أبيها.

وتقترب من حافة النهر لتلتقط قطع الطين اللين لتصنع منها تماثيل وأشكال مختلفة.. وبعد الانتهاء تقوم بترتيبها وتنظيمها في شكل هندسي بديع.. وفي بعض الأحيان كانت تتحت من ذلك الطين اللزج بعض التماثيل لرجل وامرأة ومجموعة من الفتيات الصغيرات ، متخيلة أن الرجل والمرأة هما أبيها وأمها، بينما التماثيل الأخرى هم لشقيقاتها.

وطال الانتظار وانقضت الساعات الطوال، ولم يعد الأب.. بينما الفتاة ذات الأعوام الخمسة تفرك أناملها¹⁹ الدقيقة، وعينيها السوداويتين الضيقتين معلقة بالنهر تترقب اللحظة التي يظهر فيها وكلما لاح أمامها قارب أو حتي طائر من بعيد اشرب²⁰ عنقها لعله يكون أباه.

(18) نزل متتابعاً وكثيفاً

(19) المفصل أعلى الأصبع الذي فيه الظفر

(20) مدت عنقها

وأسقط في يدها ولم يعد الأب من رحلته المعتادة.. وبدأ الظلام يلف المكان كله، ويخيم عليه ولم يبق على شاطئ النهر سواها وخيرير الماء²¹ الذي تداعبه الأمواج يميناً ويساراً.

وأخذ الليل يرخي سدوله وأستاره، ويلقي بظلاله القاتمة على كل شيء، كالوحش الجائع الذي يطبق على فريسته ليشل حركتها ويرديها قتيلة.

وشعرت الفتاة بالذعر والخوف من الظلام المطبق²² وإنه يحرق فيها، ويمد يده ليجذبها نحو الماء الراكد الذي يبدو عليه الغضب تارة والرحمة تارات أخرى.

كان بقاؤها وحيدة في هذا المكان الموحش أكثر من ذلك مستحيلاً ومغامرة مخيفة، وارتبكت وهي لا تدري ماذا تفعل؟ ومضت خطوات نحو الشجرة التي تركت دراجتها إلى جوارها وتخيلت كل أشجار الغابة أشباحاً عملاقة تريد الإمساك بها والفتك بجسدها النحيل.

واستقلت دراجتها في رعب بخطوات متثاقلة، وقدمها لا تستجيب لها، كانت تشعر بمزيج من الخوف والقلق فتلك هي المرة الأولى التي

(21) الصوت الذي يحدث من شدة جريان الماء

(22) الدامس

تمضي فيها في هذا الطريق ليلاً لتعود إلى الدار وحيدة من دون أبيها.. وبالرغم من أن المسافة كانت قصيرة فلم تقطعها بسرعة بل كانت تظن أن الدار كلما اقتربت منها تبتعد أكثر وأكثر.

ولم تتركها الظروف فدائماً تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، وهبت الريح بغضب وصفيرها يكاد يصم الأذان، وحركتها تعاند كل شيء وتحمل كل ما يعترض طريقها وتجده منتصباً أمامها إلى عنان السماء، ثم تهوي²³ به بكل قسوة على الأرض مرة أخرى من دون رحمة، ثم تنقله من السفح إلى الطريق وتجره ثانية لتلقي به في النهر، وكادت تقتلع الأشجار وأعمدة الإنارة، وأسقف البيوت المصنوعة من القرميد²⁴ من مكانها، وتطيح بالفتاة من فوق دراجتها.

كانت تمضي ودموعها الحارة تسيل من مقلتيها، مناسبة على خديها، حتى الطريق الذي كساه ماء المطر لم تكن تراه بوضوح، فدموعها حجبت عنها الرؤية، وكم من مرة كادت أن تسقط في النهر، فالريح العاتية تدفعها بشدة نحو حافة النهر الملاصقة للطريق... أما

(23) تقذفه

(24) نوع من الحجارة لتزيين المنازل

نشيحها²⁵ المتواصل يكاد يسمعه من يسكن في أطراف الغابة من الجهة
المقابلة للنهر.. وتتقطع له نياط القلوب²⁶.

بعد كل هذه المعاناة والخوف، عادت الفتاة وهي مبللة الملابس
وفرائصها²⁷ ترتعد من الذعر وجسدها النحيل يرتجف من البرد، وشعرها
المتهدل²⁸ قد تبعثر على وجهها.

ولمحت أمها في نهاية الشارع تقف على باب المنزل في قلق
وجزع عليهما فعدم رجوعهما حتى هذه الساعة المتأخرة لم يكن عادياً.

وروت الفتاة لأمها ما حدث.. فأشاحت الأخيرة بوجهها للناحية
الأخرى في حنق وارتباك ومادت²⁹ بها الأرض وتقاذفتها الأفكار
وازدردت³⁰ ريقها بصعوبة.. وتمتت بكلمات لعلها كانت تدعو الله أن
يعود زوجها سالماً.



(25) متقطع البكاء بصوت مسموع

(26) النياط: عرق غليظ يربط القلب بالرئتين، وقطعه يعني موت صاحبه

(27) منطقة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع

(28) المسترسل الطويل

(29) دارت بها الأرض وكادت تسقط مغشياً عليها

(30) بلعت

المشهد الثاني

أحلام مستحيلة وقلوب عطشى

ومرت السنون بطيئة بلا روح كحركة قطار متداع³¹ أكل عليه
الدهر وشرب.. ولم يعد الأب!! وغربت شمس أسرتها، فأمها المكلومة³²
كانت دوماً حزينة وكسيرة خاطر وإخوتها تمضي أيامهم جميعاً بين
حزن وفقر وعوز واشتياق.

لقد قوض³³ رحيل الأب المفاجئ أحلامهم جميعاً وغفل الحظ
عنهم وضمن عليهم بالسعادة.. وأفسح للقدر الفرصة أن ينال منهم
بمطرقته التي لا تعرف الرحمة!!

وكبرت الفتاة ولامست عمر الزهور، واقتربت من الثالثة عشر،
ورغم ذلك لم تكف عن الذهاب إلى النهر، والبقاء في ذات المكان الذي
ودعت فيه أبيها للمرة الأخيرة قبل سنوات.. والمكوث³⁴ على ضفته لعل
الغائب يعود كما عاد يوسف لأبيه يعقوب برغم سنوات الفراق والحرمان،

(31) متهالك

(32) الحزينة

(33) حطم

(34) البقاء

التي جاوزت الأربعين عاماً من فقدته ولكن التأم شمله مع أبيه وهو شاب يافع بهي الصورة والقدر بكمال صحته وعنفوانه .

لقد أراد إخوته قتله فعاش، وحاولوا التخلص منه فنجا، وعمدوا إلى القضاء على حلم أبيه فيه فرأه وزيراً للمال في مصر أكبر بلاد الدنيا آنذاك.

حقاً إن إرادة الله تعمل بطريقة لا يفهما البشر ولا تسير وفق إرادة الناس ، فقد يرى الانسان واقعه سيئاً بينما هذا الواقع الذي يظنه سيئاً هو الأفضل لو تغيرت الظروف.. قال تعالى: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْنَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ³⁵.

كانت في كل مرة تشخص³⁶ ببصرها نحوه، وكأنها تتاجيه، وتتأمله ملياً، وكلها أمل ورجاء في أن يظهر من بعيد على ظهر قاربه المعتل، ليلثمها من جبينها ويضمها كما كان يفعل دائماً معها، وتطوق هي رقبة أبيها بذراعيها كما كانت تفعل دائماً معه.

(35) الأعراف أية: 188

(36) لا تغمض عينيها من الترقب

اعتادت أن تقضي الساعات صامتة حزينة، تهطل دموعها كالصنبور الذي يتساقط منه الماء من دون توقف.. ثم تعود أدراجها إلى منزلها.

حتى في الأنواء الممطرة، والعواصف، والبرد القارس، كانت حريصة على الذهاب إلى النهر كل يوم، ومع مرور الزمن كان حرصها يزداد على زيارة المكان، وفترات بقائها هناك تطول.

أحيانا كانت تذهب مع أقرانها وزميلاتها ناحية النهر، ليتجاذبوا أطراف الحديث ويتبادلوا القصص المسلية والنكات المضحكة، ولكنها عادة تتركهم لتجلس وحيدة بالقرب منه.

زيارة النهر أصبحت إحدى مناسك³⁷ حياتها التي تحافظ عليها مهما كانت الظروف، كانت هي سلوتها وعزاءها في وقت هي في أمس الحاجة إلى أبيها.. إنها في فترة المراهقة.



المشهد الثالث

وجوه لا تغيب وذكريات تنبض

وتشب الفتاة عن الطوق³⁸ ويطرق بابها الخاطبون فتختار أحدهم وتتزوج، ورغم ذلك لم تنس أباه قط، حتى زوجها اختارته لأن ملامح وجهه وتقاطيعه تشبه أباه.

وجاءت ليلة العرس، بينما هي تجلس الى جوار عريسها والناس من حولها يغنون بعض الأناشيد والأهازيج التي اعتادوا عليها في الأعراس كانت ترى وجه أبيها في كل الوجوه، وتمنت لو أن أباه يطل عليها في تلك اللحظات ولو لثوان ليراها وهي ترتدي فستانها الأبيض وإلى جوارها من اختارته وارتاح لها قلبه.. ولكنها كانت تحلم بلقاء لعله يكون مستحيلاً. وهنا تحجرت الدموع في عينيها جمالاً وفتنة.

وظن الجميع أن تلك الدموع هي دموع الفرح لكنها كانت دموع الحرمان فالشوق بعد الفراق لا يطاق.

(38) كبرت وصارت شابة يافعة

بعد الزواج بقليل كانت ترافق زوجها إلى النهر وتقف أمام الشاطئ طويلاً في لحظات صامتة وقد غرقت في التفكير وأبحرت بخيالها بعيداً.. إلى أن يجل الليل السماء، فتعود أدراجها معه.

كان زوجها يعلم تماماً حكايتها مع النهر منذ أن كانت طفلة تلهو على شاطئه كل يوم، وتقضي أوقاتاً بين أحضان الطبيعة وأشجار الغابة وصفحة النهر وصوت العصافير، وكيف التهم النهر أباهما وقاربه منذ سنوات طويلة خلت، وتحطمت مشاعرها بلا رحمة.. واغتيلت براءتها على ضفافه القاسية التي لم ترحم دموعها واستجداءها³⁹، ووسط أمواجه التي تدهم في طريقها كل شيء وتبتلع دواماته أولئك الذين يأمنوه.

وأنجبت الفتاة، فكانت تصطحب زوجها وأولادها الصغار أيضاً لذات المكان يلهون ويلعبون حولها على الشاطئ.. وشب أولادها عن الطوق أيضاً فكانوا ينحتون من الطين تماثيل صغيرة تماماً كما كانت أمهم تفعل حينما كان يطصحبها أبوها إلى النهر وهي في مثل عمرهم.

هناك تجد ماضيها وترى حاضرها مع بناتها ولم تكن تأبه كثيراً لمستقبلها فحبها الشديد لأبيها جعلها مشدودة للماضي بقوة تعادل أضعاف رغبتها في التفكير في المستقبل أو الاستمتاع به وحدها من

(39) استعطاف

دونه.. حيث تطل من تلك البقعة برأسها على نافذة ذكرياتها، في الطفولة ومدارج الصبا⁴⁰ تلك الفترة المحفورة في وجدانها ومنقوشة في قلبها وتسري تحت جلدها.

كان يساورها شعور دائم أن النهر اقتنص⁴¹ سعادتها وأنه مدين لها بأبيها الذي فقدته.. وبأيامها التي قضتها أمامه باكية منتحبة⁴² متأملة.

لقد أصبح النهر بالنسبة إليها كالقبة المقدسة التي تحج إليها ليس مرة في العام إنما 365 يوماً بلا انقطاع، أو كلل أو ملل.

ولم يعد النهر لغزاً كبيراً كما كانت تتصور إذ باتت تفهمه وتعرف لغته وحركاته، وسكناته حتى دواماته كانت تحفظها وتعرف أماكنها أيضاً، فإذا زارته يوماً وهي مشغولة الخاطر تجد الأمواج التي كانت ساكنة فوق صفحته تهرع نحوها وكأنها تعانقها وتتهلل لمجيئها وتبتهج لقدمها من بعيد.

كانت تتندر دائماً وتقول أن النهر أصبح عطوفاً معها وكرماً أيضاً.. فمرات كانت تجد على شاطئه قطعاً من الذهب غالية الثمن

(40) المكان الذي نشأت فيه

(41) أخذته على غرة وغفلة

(42) تبكي بحرقة

قذفها النهر تحت أقدامها، كأنه يعوضها ويريد أن يعقد معها مصالحة،
لعله بذلك يعزيها ويشاركها في أحزانها التي تفوق في حجمها الجبال
الراسيات⁴³، ولم تتدخل أو تبرأ منها أبداً، وكأن روحها الحاضرة، امتزجت
وتلاحمت في بناء عجيب مع روحه الغائبة.

وبرغم السنين الطوال لم يفارقها شعور يصل أحياناً إلى درجة
اليقين أن النهر يوماً لا محالة سيرد إليها ضالتها ويجبر كسرهما ويطبب
آلامها ويعيد إليها أباهما... هكذا كانت تخبر أولادها، الذين تجمعهم
حولها وتروى لهم ما حدث.



المشهد الرابع

دموع لا تجف ونار لا تتمد

وتتقدم الفتاة في العمر ويلتئم⁴⁴ العقد الرابع، وتبدأ في عقدها الخامس، بذات الشجون والشوق والصبابة⁴⁵ أيضاً بينما هي لا تزال تذهب إلى النهر وتتحين خلو الشاطئ من الزائرين الذين يتجمعون على شاطئه كل يوم، لتذرف⁴⁶ على صفته دموعاً حارة وزفرات ملتبهة وأنات مكتومة.

كانت تشعر أن أباه يشاظرها أنفاسها ويعيش في عقلها ويسكن وجدانها ويملاً حياتها برغم غياب جسده، إلا أن روحه لم تفارقها في المناسبات جميعاً، حتى اللقمة إذا أعجبتها تمننت لو اقتسمتها معه..
وحينما تسند رأسها على يديها وتعود بالذكريات، كانت تعيش سعادة لا تجدها سوى في خيالها، كان زوجها يقطع عليها تلك السعادة ويوقظها من أحلامها التي تعيش فيها وتسبح بخيالها وتغرق في تفكيرها وتختبئ في أحضان الماضي وتمضي لحظات من طفولتها في ذمة الأمس..
ويقول مداعباً إياها: كل الأحزان تبدأ كبيرة وتنتهي صغيرة، ما عدا حزنك

(44) يكتمل

(45) حرارة الشوق

(46) تسكب

على أبيك لم يتغير أو يتناقص ولم تهدأ فورة⁴⁷ قلبك المحترق.. فتد
متندرة :

كم غايب ما غاب ذكره عن البال

وكم حاضر يشبه حضوره غيابه

ثم تردف قائلة: طبعاً لا أقصد حضورك أنت يا زوجي العزيز.

وعلى الرغم من الثلوج التي كانت تكسو الطريق إلى النهر في
موسم الشتاء الطويل في المنطقة التي تعيش فيها، وصحتها التي
أصبحت معتلة وقوتها التي خارت⁴⁸ لتقدمها في العمر.. إلا أن ذلك كله
لم يفت في عضدها، ولم يثنها ولم يوهن من عزيمتها في الذهاب إليه..
فكانت تستقل دراجتها وتذهب للشاطئ كعادتها منذ أن كانت صغيرة..
وتطوي المسافة في سرعة كبيرة وتبذل جهداً مضاعفاً وكأنها في سباق
مع الزمن ورهان مع نفسها لتصل بسرعة إلى النهر.



(47) غليان

(48) ضعفت

المشهد الخامس

مفاجأة غير متوقعة

وحيثما شارفت على السبعين عاماً.. أصبحت مقوسة الظهر ضعيفة النظر هزيلة الجسد وقد ذهب جمالها وبهاؤها مع الزمن مع أشياء كثيرة نفقدها جميعاً مع كل لحظة تمر علينا ونحن أحياء.. فالأيام لا تحاسبنا دفعة واحدة إنما تطالبنا بثمن الحياة من أعصابنا ومشاعرنا وأحاسيسنا، فلا تميتنا مرة، إنما على دفعات.. وتتقنن في عذابنا.

إن رحيل من نحب الواحد تلو الآخر يميت جزءاً منا وفيينا، ويبعث أرواحنا ويطيش بعقولنا ويهتك ستر نفوسنا .. ثم يأتي الموت في موعده من دون تأخير أو تقديم ويللم كل هذه الأشياء التي بعثرتها المحن التي تمر بنا والخطوب والنوازل يحملها ويرحل بتلك الأرواح إلى الله في ملكوته.. تذهب إلى صانعها ومهندسها صاحب الملكوت تنزهت صفاته... وتبقى الأجساد في الأرض لتتحلل وتبلى، فتلك الأبدان خلقت من طين الأرض وهي غالباً تلبي النداء، ولا يمكن أن تفارق المادة التي صنعت منها، وحتماً يوماً ستعود إليها.

دائماً نحن الطرف الأضعف في النزال مع الزمن، ودوماً هو يفوز بالضربة القاضية على الناس جميعاً.. فنراوغه أحياناً ونهرب منه مرات.

في كل مرة نظن أننا غافلناه وتمكنا من الإفلات منه نراه يصمت
ثم يصبر، ولكنه يظل متربصاً بنا، وحينما يريد أن ينهي المعركة يبدأ
النزال والعراك غير المتكافئ ويهزمنا مستخدماً قفازاته الناعمة وقبضته
الحديدية ويجهز علينا بخفة ومهارة وسرعة منقطعة النظير.

ورحل زوجها عن الحياة بعد زواج دام عقود عدة، وتزوج أولادها
جميعاً وتركوها وحيدة من جديد، تعلق أحزانها وتواسي نفسها.

كانت تعيش أياماً باهتة كلون السماء في فصل الشتاء، وتتقاسم
مع نفسها دقائق وساعات صامتة لا صوت فيها إلا صوت الزمن الذي
أضحى يتحرك في رتابة وملل.. ويمضي بها نحو نقطة النهاية مضي
الوائق من نفسه الذي لا يجد له منافساً في ذلك السباق.. فمطية الوقت
تطيعه طاعة عمياء، وتستجيب له أيما استجابة وتأتمر بأمره أنى شاء
متى وكيفما أراد.

ولم تعد تسمع في الغابة صوت الكروان والبلابل كما كانت
تسمعه من قبل، ولا يتناهى⁴⁹ إلى سمعها سوى أصوات البوم تنعق⁵⁰ في
حزن وكآبة.

(49) يصل

(50) تصيح

وأحيانا كانت تفتح دولاب ملابسها وتلتقط صندوقاً خشبياً به بعض الأوراق التي أحالتها الأيام إلى اللون الأصفر الباهت حتى الحبر بدا غير واضح وضاعت الحروف وتاهت العبارات، وهرمت⁵¹ المفردات وشاخت كحال صاحبته.

وتجلس على حافة السرير وتقرأ خطابات زوجها حينما تم استدعاؤه للحرب منذ سنوات بعيدة.. وكان هذا أول خطاب يصلها منه بعد مرور عدة أشهر من اندلاع المعارك.. كتب زوجها يقول:

" لا تظنين أنني هنا وحدي فأنت معي تسكنين روحي ودمي ورغم الموت الذي يحدق فينا كل لحظة في ساحة المعركة والقنابل التي تمطر علينا من السماء وتحصد الأرواح، كما تحصد المناجل القمح، ولكن حتى الموت لم يفلح أن يشغلني عنك ولو لثوان فأنا لا أهابه ولا أخشاه بل أرحب به إذا كان دفاعاً عن وطني الذي أنت جزء منه، بل أنت وطني كله الذي لا أرى في الدنيا سواه.

من ذا الذي يقوى على فراق زوجة لها قلب حنون مثل قلبك ومشاعر تغمر الجميع كمشاعرك..".

الإمضاء زوجك المحب

(51) الضعف

كانت تقرأ الخطابات والرسائل ثم تطوي الأوراق بعناية وتعيدها إلى الصندوق مرة أخرى.. ثم تمضي نحو الدولاب وتضع الصندوق بين أكوام ملابسها، من شدة حرصها عليه، وخوفها على ذكرياتها والتي لم يبق لها من الدنيا سواها.

وفي إحدى المرات التي ذهبت فيها للنهر، وكانت المفاجأة أن الماء قد انحسر بشدة وجف النهر!! وظهر القاع واضحاً جلياً.

وذات يوم ذهبت السيدة المسنة إلى النهر، وأوقفت دراجتها وخلعت معطفها الثقيل، ووضعت جانباً، واستعدت وخاضت بقدميها في الوحل بقاع النهر، وفي المنتصف وجدت حزماً من الحطب كانت غارقة في الماء، ظهرت مع جفاف الماء.

وعندما اقتربت من تلك الأكوام كانت الصدمة!! لقد رأت قارب أبيها غارقاً بين هذه الأكوام فأزاحت الأعواد عنه، ودنت بخطى وئيدة⁵² من القارب، وأخذت تتحسس يديها وتتلمسه في شوق وعبراتها تقطر على خديها وتحفر أخاديد في وجنتيها⁵³.. وقفزت السيدة العجوز في

(52) بطيئة ومتمهلة

(53) خديها

القارب الذي كان يميل على جانبه، وقد أحاله الماء الى كومة من الأخشاب البالية، وعلى الرغم من كهولتها شعرت أن الطاقة تدب فيها من جديد والكهرباء تسري في جسدها المكدود.

وجلست القرفصاء في القارب لبرهة، وهي لا تلوي على شيء، ولا تدري ماذا تفعل ثم مالت على جنبها هي الأخرى، ونامت في مكانها، ووضعت يدها تحت رأسها كوسادة، والتحفت بالسماء وأغلقت عينيها في وداعة وشعرت أن جفنيها أثقل من المعتاد ولم تعد تقوى على فتحهما، فأغلقت عيونها واستسلمت في النهاية وغطت في نوم عميق.

ومرت فترة من الزمن وهي مستلقية داخل القارب.. وإذا بها تستيقظ من غفوتها، وتتنظر حولها في النهر وتقلب بصرها في ضفتيه بنظرة فاحصة كأنها تبحث عن شيء ما وسط الأوحال.. وفجأة تقف من تلقاء نفسها بكل همة ونشاط ثم تهرول بخطوات سريعة، وبينما هي تركض، كان انحناء ظهرها يختفي وتحديه⁵⁴ يتلاشى، وتعود شيئاً فشيئاً طفلة صغيرة كما كانت في المرة الأخيرة التي ودعت فيها أباهما على الشاطئ.

(54) نقوسه

كانت تجري في خفة ورشاقة والسعادة تملؤها، والبشر⁵⁵ يطل من عينيها، وقلبها يكاد يقفز من بين ضلوعها لقد لمحت أباها واقفاً على مقربة منها، في وسط النهر فهرولت إليه بجنون كسابق عهدها في طفولتها.. وقفت مذهولة أمام أبيها الذي كان يرمقها وهو بكامل هيئته وملابسه التي اعتادت أن تراه مرتدياً إياها.. تتفرس في ملامحه ثم تفتح ذراعيها وتختبئ في حضنه لتتهدأ من فيض حبه وحنانه.

أخيراً لقد عثرت عليه ولكن في أحلامها.. أبي طال انتظارك.

تمت

(55) طلاقة الوجه